الفصل الأول

الدعائم الأساسية لنظريات إليوت فى النقد

« لقد أحس العالم الأدبى بأسره بذلك الأثر العميق الذى تركه إليوت كناقد فذ ، وهو أثر خفى غامض يصعب علينا أن ندرك أبعاده أو نسبر أغواره لنعرف منتهاه » .

جورج واتسون

إنه لمن دواعى الغرابة حقّاً أن يحدث هذا الكاتب ثورة فى الأدب بالرغم من تمسكه الشديد بفكرة التقاليد ، وترجع هذه الثورة إلى عشرينات وثلاثينات هذا القرن . فلقد بدأ كتاباته بحملة شعواء على النقد الرومانسى ، وهو متأثر فى ذلك بالموجة التى بدأها الناقد والفيلسوف الإنجليزى ت . إ . هيوم[1] الذى توفى إبان الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ ، فهو الذى وجه الأنظار إلى بزوغ فجر الكلاسيكية فى النقد الأوربى . وقد وجه ضربة قاضية إلى الشعر الرومانسى حينما أعلن قائلاً :

« إننى أعارض شعراء الرومانسية وحتى الصفوة المختارة منهم . وأعارض أكثر من ذلك موقفهم السلبى . فأنا لا أوافق على لهانيتهم المتيمة إذ أنهم لا يعتبرون القصيدة شعراً ما لم يكن بها أنين أو استغاثة بالنسبة لشىء أو آخر »[2] .

والسبب فى ذلك فى رأى هيوم هو :

« أن فحوى الشعر فى نظر غالبية الناس هو إيجاد آفاق مترامية يقودهم

(١) T.E. Hulme.

(٢) "I object even to the best of the romantics. I object still more to the receptive attitude. I object to the sloppiness which doesn't consider that a poem is a poem unless it is moaning or whining about something or other."
T.E. Hulme, *Speculations : Essays on Humanism and the Philosophy of Art* ; ed. by Herbert Read. London, 1924, p. 116.

إليها . وقد ينطوى الشعر المحاط بسياج أرضى محدد (كما فى معظم أشعار « كيتس ») على كتابة جيدة وصنعة ممتازة ، لكنه خارج عن نطاق الشعر فى نظرهم . وهكذا ضللتنا الرومانسية إلى الحد الذى به نرفض أن ننعت الشعر بالسمو ما لم يعترى شكله الغموض »[١] .

من هنا بدأت حملة إليوت على الشعر الرومانسى ، فالوجدان الذى نحس به بعد الاستمتاع بقصيدة ما لاينبع من بواعث الشعر التلقائية . فقد تكون هذه البواعث التى أثرت فى نفسية الشاعر متناهية فى البساطة ، لكنها حينما تنعكس على مكونات القصيدة تبدو لنا معقدة ، وبعيدة كل البعد عن الدوافع الأولى التى هزت كيان الشاعر . وهنا يحذرنا إليوت من التمادى والشطط فى التعبير فهى أمور غالباً ما تؤدى إلى الزلل المحقق . ويعزو إليوت هذا التمادى إلى رغبة بعض الشعراء الناشئين فى التعبير عن كل ما هو جديد مستحدث ، فهذه الرغبة الجامحة هى التى تؤدى غالباً إلى بلبلة فى الفكر ، وتقصير واضح فى القدرة على الإتيان بالتعبير الصحيح الجيد . ويرى إليوت أن مهمة الشاعر لا تنحصر فى الإتيان بالتعابير البراقة ، والأساليب المنمقة . والمعانى الخلابة ، بل إنها تتركز فى الإشادة بالأمور العادية . وتتجلى براعة الشاعر وحذقه فى صياغة هذه الأمور الجارية ومزجها بعضها ببعض لتبدو لنا فى ثوب رائع جميل . ولهذا فإن نزعة الرومانسيين فى تعريف الشعر بأنه « الوجدان الذى نسترجعه فى هدوء »[٢] لا محل لها هنا ، فالشعر فى نظر إليوت تركيز لا استرجاع . ومن هذا التركيز تنبع فروع عديدة تتصل بخبرات متشعبة . وهذه الخبرات ليست شخصية أى

---

(١) "The essence of poetry to most people is that it must lead them to a beyond of some kind. Verse strictly confined to the earthly and the definite (Keats is full of it) might seem to them to be excellent writing, excellent craftsmanship, but not poetry. So much has romanticism debauched us, that, without some form of vagueness, we deny the highest."
Ibid., p. 117.

(٢) "Emotion recollected in tranquillity".

أنها لا تنبع من ذاتية الشاعر ، بل إنها موضوعية تنم عن التحام الشعور باللاشعور ومزجهما فى محيط شعرى واحد . وعلى ذلك فالشعر هروب من الوجدان كما أنه هروب من الشخصية ، إذ أن التعبير عنهما يجرنا ثانية إلى براثن الرومانسية .

ولقد تملكت هذه النظرة النقدية على لب إليوت ولازمته زمناً طويلا ، فأضاف إلى منطوق الكلاسيكية معنى النضج والتكامل . كما نتبين ذلك فى المحاضرة التى ألقاها فى السادس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ أمام جمعية فرجيل — الشاعر اللاتينى — وكان عنوانها : ما هو الكلاسيكى ؟[١] والنضج الأدبى فى رأيه هو الموروث من المخطوطات الأثرية وبخاصة المخطوطات اليونانية والرومانية ، كما أنه ينتج من التفاعلات اللغوية والاجتماعية ، والتاريخية والفكرية . إن اهتمامه بالموروث هو الذى حداه إلى القول بأنه :

« من الطبيعى أن يصاحب نضج العقل والتأدب أو السلوك نضج فى اللغة . ولعلنا نتوقع اقتراب اللغة من مرحلة النضج فى اللحظة التى تتكون فيها حاسة نقدية عن الماضى ، وثقة بالحاضر ، ويقين بالمستقبل . أما النضج الأدبى فإننى أعنى به إحساس الشاعر بأسلافه ، وإحساسنا نحن بوجود من سبقوه خلف هذا الإنتاج ، تماماً كما نحس بملامح الأجداد فى شخص ما دون أن يطغى ذلك على فرديته أو ذاتيته »[٢] .

هذا الإحساس بالماضى هو ما يعنيه إليوت من وراء المعنى التاريخى لفكرة

---

(١) *What is a Classic ?*

(٢) "Maturity of language may naturally be expected to accompany maturity of mind and manners. We may expect the language to approach maturity at the moment when it has a critical sense of the past, a confidence in the present, and no conscious doubt of the future. In literature, this means that the poet is aware of his predecessors, and that we are aware of the predecessors behind his work, as we may be aware of ancestral traits in a person who is at the same time individual and unique." T.S. Eliot, *What is a Classic ?* London, 1955, p. 14.

التقاليد . وإدراك هذه الفكرة لازم فى عملية النقد بقدر ما هو جوهرى فى عملية الخلق والإبداع .

وقد أوضح لنا إليوت هذا الاتجاه فى مقاله عن التقاليد والموهبة الفردية[١]

إذ يرى أن هذه التقاليد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتدرج التاريخى للماضى . وعلى الكاتب أن يلم بها إلماماً صحيحاً قبل أن يقدم على عملية الإنتاج . ومعنى ذلك أن التيارات الفكرية المعاصرة لا تفى بهذا الغرض المنشود ، إذ أنه من الأجدى أن يستوعب المرء الماضى والحاضر وأن يشق طريقه وسط الأفنان المتشابكة للأدب الأوربى برمته منذ عصر الإغريق حتى وقتنا الحاضر . حينئذ يمكننا تقييم الأعمال الأدبية والفنية العظيمة وذلك عن طريق مقارنتها بغيرها . ويتبادر إلى أذهاننا إذن السؤال التالى : ما هو وضع الإنتاج الفنى بالنسبة للتقاليد الماضية أو الموروث منها ؟

يقول إليوت إن هناك حتمية فنية وهى دخول الإنتاج الجديد داخل إطار التقاليد ، إلا أن العملية لم تنته إلى هذا الحد :

« فالآثار الفنية الباقية تكوّن نظاماً مثالياً فيما بينها ، والإنتاج الفنى الجديد (الذى يستحق هذه الصفة) هو الذى يعدّل من كيانها بدخوله فى ميدانها . إن النظام القائم متكامل قبل دخول العمل الجديد عليه . ولبقاء هذا النظام بعد أن طرأت عليه الجدة ، يجب أن يتغير برمته ولو قليلاً ؛ وتباعاً لذلك تتغير العلاقات والقيم بين الجزء والكل ؛ وهذا هو التوافق بين القديم والجديد »[٢] .

---

(١) *Tradition and the Indiviidual Talent.*

(٢) "The existing monuments form an ideal order among themselves, which is modified by the introduction of the new (the really new) work of art among them. The existing order is complete before the new work arrives; for order to persist after the supervention of novelty, the whole existing order must be, if ever so slightly, altered; and so the relations, proportions, values of each work of art toward the whiole are readjusted; and this is conformity between the old and the new."
T.S. Eliot, "Tradition and the Individual Talent," *Selected Essays*. London, 1948, p. 15.

إن هذا التجاوب بين الماضى والحاضر ، وهذا التبادل الفكرى بين الأدب الأوربى المعاصر والتراث الكلاسيكى القديم ، يؤدى إلى فهم الحاضر على ضوء الماضى ، ومعرفة الماضى على هدى التيارات الحديثة . فسلسلة الفكر متصلة الحلقات ، ترتبط الواحدة منها بالأخرى .

ومعيار القيمة فى الإنتاج الجديد هو قدرته على أن يشق طريقه وسط زحمة الأعمال الفنية الأخرى ، كما تتجلى أيضاً فى توافقه مع التراث الماضى دون أن يكون له أى أثر خفى من شأنه أن يؤدى إلى الشذوذ أو النفور . وهذا التوافق بدوره يولّد فى الشاعر أو الفنان القدرة على التخلى عن ذاتيته أو فرديته فى سبيل هدف أسمى وهو تحقيق الموضوعية فى إنتاجه الفنى . وعلى ذلك يقول إليوت « إن تقدم الفنان ما هو إلا دأبه على التضحية الذاتية ، أى دأبه على محو شخصيته »[1] . ذلك أن العمل الفنى لا يعبر عن شخصية الفنان ؛ إذ يرى إليوت أنه مجموعة من التفاعلات الناتجة عن الخبرات والمؤثرات الخارجية التى تفاعلت مع عقلية الفنان . وهذه التفاعلات قد لا يكون لها أى أثر فى حياة الكاتب أو الفنان ، كما أنها لا تتصل بشخصيته من قريب أو بعيد .

وعلى ذلك فمن الواجب علينا أن نركز كل اهتمامنا فى النقد حول الإنتاج الفنى بغض النظر عن شخصية الفنان وميوله ونزواته الخاصة ، إذ تهمنا اللوحة الفنية الرائعة ، أو القطعة الموسيقية المشجية ، أو القصيدة التى تأخذ بلبك ، أو المسرحية التى تحرك أوتار قلبك بمواقفها الدرامية ، دون حاجتنا إلى الجرى وراء هذا المؤلف أو ذاك الكاتب . فالعمل الفنى متكامل فى حد ذاته ، له كيانه بقدر ما له موضوعيته ، يتمتع بصلة قوية بالتراث الماضى بقدر ارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالتيارات الحاضرة . إن هذه العلاقة تتوقف على الكليات لا الجزئيات ،

---

(١) "The progress of an artist is a continual self-sacrifice, a continual extinction of personality."
Ibid., p. 17.

وعلى الفكر العالمى لا المحلى ، وعلى النظرة الموضوعية لا الذاتية . والنقد الصحيح هو الذى يتتبع الخيوط التى كونت فى مجموعها نسيج هذه العلاقات ؛ فيوضحها لنا ، كما يفسر الظروف التى أوجدتها والملابسات التى أحاطت بها .

* * *

وقد تعرض إليوت بعد ذلك للصلة بين العمليات النقدية والإبداعية ويرى أن عملية الخلق فى مجموعها لا تخرج عن كونها عملية نقدية ، فالكاتب الذى ينتقى كلماته ويصوغ تراكيبه ويختبر مضامينه ، إنما هو مبدع بقدر ما هو ناقد ، إذ أن عمليات الانتقاء والصياغة والاختبار عمليات نقدية بقدر ما هى إبداعية . وفى هذا الصدد يعتبر إليوت نقد الكاتب لإنتاجه الخاص أعظم إنتاج فى النقد . على أن يكون مثل هذا الكاتب قد اكتسب خبرة ومراناً . وحذقاً ومهارة ، تساعده على تقييم عمله من الوجهة الفنية الخالصة . فمثل هذا النقد له قيمته الفريدة ، ذلك أنه نابع من بواطن الإصالة الإبداعية ، فامتزج بها وتفاعل معها ، فلا غرابة إذن إن بدا لنا قوياً فى منابعه . ثابتاً فى جذوره ، صحيحاً فى براعته .